الفصـــل الاول

الفن كظاهــرة أجتماعية

تنبه الدارسون الى تلك الصـــلة الوثيقة التى بين الفن والمجتمــع • وأصبحت دراسة الفن من أهم الموضوعات التى يدرســها عــلم الاجتماع الجمالى • Sociologie Esthètique

الذى أسماه دور كايم بهذا الاسم وكذلك فان شارل لالو Ch. Lalo وفلدمان Feieldman كانا يسميان هذا العلم بعــلم الجمال الاجتماعى Esthétaique Sociale أى دراسة الفن من الناحية الاجتماعيــة ومن حيث أهمية الفن فى المجتمع ، ومن حيث وظائفه ونشأته وتطوره وعلاقته بالنظم الاجتماعية الهامة وغير ذلك من الموضوعات التى تربط الفن بالمجتمع •

استخدم بومجارتن هذه الكلمــة Esthètique فى كتابه الذى يبحث فيه عن تحليل الذوق الفنى ومكوناته •

والفن فى تاريخه يقدم خطوات مختلفة ومتضــاده أيضا لدرجة أننا نيأس من ايجاد تعبير عام دائم عنه ــ وهو فى جملته مثل الطبيعة الانسانية له عدة وجوه ، وكل نماذج الاحساس تعطى له منابعــه ونظمه الخاصــة ، وتختلف هذه الاحساسات والامزجــة من فرد لآخــر وكلها تعــبر عن ذلك النشــاط المسمى بالفن •

ويعمل الفن على اختفاء الأنا ، ويربط بين العالم الخارجى والداخلى، فهو الملجأ الوحيد الذى يلتجأ اليه الانسان فى كل الأوقات ، ولهذا لا يمكن الاستغناء عنه أو استبداله بآخر • وهذا الازدواج فى الانسان يجلبه العمل الفنى موضحا تلك الصفة التى جعلت منه مجمع لهاتين الحقيقتين[1] •

---

(1) Dialogue Sure le visible André Malraux .

والفن لا يوصل فقط الأنا بالعالم بل انه يصل بين الفنان والآخرين ، وهو الذى يمكنه من الاتصال بهم والاحساس بهم ، واعتباره جزءا منهم •

هــذه معجزة العمــل الفنى التى لا تولى أهمية كبرى • والتى تفسر بطريقة أوضح من كل العلوم الجمالية الخاصة بالسعادة ، واللعب ، والمثل الجميل[١] ، والفنان لا يمكن أن يتجه ناحية العالم الخارجى دون أن يجذب معه ثورة العالم الداخلى ، كذلك لا يمكنه أن يأمل فى اظهار العالم الداخلى دون أن يترجم السمات الخاصة بالعالم الخارجى ، هذا الدور الذى يقوم به الفن لا يتطلب ترجيح أى الحالتين على الأخرى الا فى التوازن القــائم بين الانسانية والطبيعة التى يحس بها ، واحــدى الكفتان تميــل أكثر من الأخرى ويكفى أنه باشتراكهما استطاع الفن أن يحصل على نتيجة متجانسة تختلط بداخلها وتظهر حقيقة ثالثة وهى الخاصة بالعمل الفنى •

فالقدرة على خلق العمل الفنى ، والقدرة على الاحســاس به بداخلنا تعتبر احدى الاسباب الشرعية لكى نحيا •

وقد قامت دراسة خاصة بمشكلة الابداع الفنى تشمل الجانب النفسى لهذه العملية الى جانب الناحية السوسيولوجية[٢] والجوانب الاخرى •

وكانت هذه الدراسة محاولة صادقة لاقامة علم الجمــال أو الفن على مدلولات نفسية واجتماعية خالصة • وقد أثبتت هذه الدراسة أن الفن يعتبر وظيفة عامة للنشاط الانسانى ، ولهذا فعليه أن يستقى موضوعاته من أوجه النشاط الاجتماعى الخالصة ، كما تناولت هــذه الدراســة للابداع الفنى العوامل الاجتماعية الهامة التى كانت مادة العمل الفنى الجمــالى ــ وذلك فى الشــعوب البدائية •

---

(١) محاورة مع الظاهر : أندريه مالرو .

وهذه العـــوامل أربعة :

(أ) المعلومات ، وخاصة المعلومات التذكارية. L, art et I, informa tion

(ب) المختارات الجنسية • L, art et I' information

(ج) الفـــن والعمـــل • L, art et le travail .

(د) الفـــن والســـحر • L, art et la magie .

وقد بدأ المؤلف بالمختارات الجنسية لأنه يرى أفضلية معـــالجتها أولا فاننا نعلم أن « داروين » كان يعتقد فى وجود أصل الفن فى الغريزة الجنسية أى فى فعل بيولوجى خالص • وهو حاجة الذكور الى الحصول على الحظوة عند النساء وهـــذا ما يشرح المظهـــر الذى كانوا يظهـــرون به من تزين « بمجموعات الرياش الجميلة للطيـــور » والتجمـــل الشخصى من أجـــل الاستمالة والجذب « من ملابس وزينات ورقص وغناء ••• الـــخ » وكانت هذه الطريقة فى التزين والتجمل تبدو واضحة فى القبائل التى يســـود فيها نظام الاندوماجية « التروج الداخلى » Endogamie الصارم • أى أن المؤلف قد أعاد الى تلك النظرة البيولوجية عن أصل الفن قيمتها ـــ أما فيما يختص بالاشكال الفنية الاخرى غير التزين الشخصى فقد ثبت أن ممارسة الرقص والغناء كهدف غزلى لا يوجد الا عند الشعوب التى بلغت قـــدرا من التقدم العلمى : مثل شعب المكسيك القديم ولا توجد لها آثار كما يبدو عند القبائل البدائية الحقه التى تملك حضارة قديمة •

L, année Sociologique :

The Origin of Art, A psychological and sociological inquiry, London, 1900 .

ويضاف الى ذلك بعض الاعتبارات الايجابية التى تشرح أهمية الرغبات الغزلية فى الفن وخاصة فى فن الشعوب البدائية ، مثل التفوق الغزلى ، والشعور الحماسى الذى يستمد غريزيا من هذا الشعور الأولى طريقته فى التعبير ، ونفس الشىء عند المتحضرين فى التعبير الغزلى فهو أوضح مما يبدو فى الرقصات والغناء ، وأحيانا فى المذاهب الدينية مثل التابو الجنس Le tabou sexuel ، والمعتقدات السحرية التى عند الشعوب المتأخرة .

أما العامل الثانى وهو المعلومات والأفكار فقد أخذت أولا شكل ايحائى وتمثيلى وقد بدى ذلك واضحا فى المهارات الدرامية الفائقة عند الشعوب الغير متحضرة التى تشرح فيها عن طريق الغناء والشعر بطريقة أكثر واقعية حتى تكون ذات تأثير قوى — فضلا عن الرسوم التى تكمل الحركة والكلام والروايات الارتجالية التى تعبر عن حادثة يومية هامة يسردها الرجال أمام النساء والاطفال « جزء من العيد ، أو موقعة حربية ... »

وهناك أيضا الرواية التذكارية أو التاريخية التى تذكر حادثة ماضية وهى تختلف عن الرواية الارتجالية . وهذه الذكريات تشمل ذكريات الحرب أو زيارة الكائنات الغريبة . وهذا يشرح سبب وجود الفنون التذكارية عند الشعوب ولقد بين جروس Gross أن الألعاب والرقص وغير ذلك تتفق تماما مع النشاط الاجتماعى السائد ، فالعمل والحرب التى هى أحد أشكال العمل ، بالاضافة الى الغناء تعتبر جميعا من أوجه النشاط المفيدة ، كذلك التشخيصات التى تصاحب العمل تظهر الروابطبين الفن والعمل وخاصة العمل التعاونى . وهذه الفنون أقل انتشارا عند الشعوب التى تعتمد على

N. Hirm: The origine of Art L, Année Sociologique, 1900 .

الرعى بسبب الانفرادية التى يتصف بها هذا العمل — أما فى المجتمعات الزراعية والقبائل الحربية فان هذه الأعمال الفنية تنشر بسبب الحاجة الى التشجيع الحربى والرغبة فى ادخال الرعب فى قلوب الاعداء ، محل هذا كان له أثر فى تقدم الفنون التشكيلية نفسها • من صور ، وبوارق ، ورموز ، ورسوم ، ووشم وعلامات الحرب ••••• الخ •

أى أن طبيعة المجتمع هى التى كانت تعمل على ظهور بعض الفنون التى تتفق مع العمل الذى يمارسه هذا المجتمع •

أما ظاهرة السحر فكانت خير مادة يستقى منها الفن بكل أنواعه من رقص وقدرات سحرية وتشخيصات ورسوم صور ••• الخ فضلا عن الطقوس التى تشتمل عليها الحفلات الدينية محل هذه كانت نبعا للفن لا غنى عنه عند الشعوب البدائية هذه العوامل الاجتماعية التى تكلمنا عنها تكون بالنسبة للفن مادة مصقولة يحولها هو عن غايتها الأصلية ليستخدمها فى أغراضه الخاصة •

فالفن يهدف نوعا ما الى التخلص من الشروط والحاجات الفردية التى ولدت الحدود الخاصة بالزمان والمكان ، وأصل الخلق الفنى هنا كما يرى الدارس يوجد جنبا الى جنب مع النشاط الذى ظهر فى التعبير عن الانفعال — فكل شعور يهدف الى الظهور من أجل أن يقوى أو يضعف — أى يعمل على الظهور خارجيا •

ومجمل القول : فان التعبير الاجتماعى عن الانفعال يعمل بنفس الطريقة مثل « التعبير الفردى » وقد يكون امتدادا له • وكل شعور يهدف الى الظهور ليس فرديا فقط بل اجتماعيا أيضا ، فهو يجمع أكبر عدد ممكن

من الكائنات التى تستجيب له — فالعمل الفنى اذن وسيلة فعالة يدركها الفرد لكى يوصل حالة تأثيرية بحلقات ذات جاذبية أكثر اتساعا •

ومن هذا ينتج أولا : ان الخلق الفنى يهدف الى التعبير الاجتماعى عن الانفعال وهو ليس خلق فردى خالص وهذا يبدو واضحا فى علم النفس • ثانيا : هذا الخلق الفنى غير قادر على الوصول بنفسه الى نهاية رقيه لأنه لكى يتمكن الفرد من أن يجعل انتقاله اجتماعيا ، أى يعطيه الشكل الفنى فانه يضطر الى استخدام عدة صور ، وعموما يستخدم عدة وسائل للتعبير تكونت لديه عن طريق البيئة الاجتماعية •

فى الواقع أنه ليست فقط وسائل التعبير التى يستخدمها الخلق الفنى هى التى من أصل اجتماعى ، ولكن هذا الخلق نفسه ليس فردى صارم — فهو عبارة عن الضغط الواقع على الفرد بسبب حالة تأثيرية جماعية حارة أحس بها ، وهو القادر على أن يعطيها التعبير ، فالفنان هو قبل كل شىء المكان الذى تشتد فيه كل نماذج الشعور الاجتماعى ، وعليه أن يستخدم وسائل التعبير التى يعرضها عليه المجتمع ، ليس فقط لكى يصبح انفعاله فنيا ، ولكن أيضا لأن الحالة الباعثة نفسها التى يريد أن يترجمها ليست الا نتيجة الفعل الواقع على عاطفته الفردية بواسطة العاطفة الجماعية •

فالفن له عدة أهميات اجتماعية : منها كما ذكرنا الأهمية النفسية والتى تتمثل فى اعتبارات الفن وسيلة لربط المشاعر الانسانية وخلق روح المشاركة الوجدانية بين الفرد وغيره فى المجتمع ، فضلا عن أن الفن أصبح يستخدم دائما لتقوية الروح الاجتماعية بين الناس سواء فى السلم أو فى الحرب بحيث يكون الناس بفضله كتلة متماسكة •

وهناك أيضا الأهمية الانسانية للفن والتى تتمثل فى أنه مظهر نظرى

عام فى سائر المجتمعات البشرية على اختلاف أشكالها ، فكما رأينا أنه يوجد عند الشعوب المتأخرة ، وعند الاطفال ، والانسان فى مجتمعاته التاريخية القديمة والمتوسطة والحديثة ، كما أكد بواس أن ليس هناك شعب من الشعوب المتأخرة الا وعرف الفن فى بعض مظاهره وذكر لوى كذلك أن أقدم الشعوب منذ العصر الحجرى الأول[١] • عرفت كذلك بعض المظاهر الفنية، لأن الفن عند هذه الشعوب يخلق التضامن ويقوى العلاقات الاجتماعية فيما بينهم اذ أنه يفيدهم فى شتى مظاهر الحياة •

كذلك يوجد الفن عند الطفل ، وفى المجتمعات التاريخية مثل اليونان حيث سمى الفن « بفن الحياة » وفى العهد الوسيط حيث ساد نفوذ الكنيسة فى فن العمارة ، وفى العهد الحديث نجد تقدم فن العمارة كذلك • ولكن الملاحظ أن الفنون الحركية هى التى لها أهمية اجتماعية فى العهد الحاضر وخاصة فى المجتمعات الغربية •

وللفنون أهمية مادية واجتماعية : فالأهمية المادية ترتبط بالفنون العملية كل الارتباط اذ هى التى تعطيها قيمتها الاجتماعية اذ أن الناس لا يهتمون بارتداء الحرير والصوف كمادة وانما يكون لبسهما بأشكال خاصة تعطيهما رونقا وجمالا فى أعين الناظرين •

وأخيرا فالأهمية الاجتماعية الفنون الجميلة تتداخل وترتبط وثيقا بسائر شئون الاجتماع وظاهرته ، فهى مثلا مرتبطة بحياة الأسرة[٢] : مثل الزواج ومستلزماته • كذلك يتداخل الفن مع العادات والعرف والتقاليد[٣]

---

(١) الفن وعلم الاجتماع الجمالى ص ٣٣ الدكتور عبد العزيز عزت ١سنة٥٥

(٢) لالو فى كتابه « الفن والحياة الاجتماعية » ص ١٦٨ •

(٣)لالو المرجع السابق •

وهذا ظاهر بوجه خاص فى الاعياد والمواسم كما تشاهد أيضا فى الاحتفالات القومية والدينية .

كذلك يتداخل الفن مع الحياة السياسية فى شكل المؤسسات السياسية نفسها أبنية البرلمانات ، والملابس فى الاحتفالات الرسمية ... الخ .

أما تداخل الفن مع الحياة الدينية فقد رأينا ذلك فى المجتمعات البدائية كذلك يوجد فى المجتمعات المسيحية فالكنائس والمعابد تعتبر متاحف فنية .

وبالاضافة الى ذلك فان الفن يتداخل فى سائر نواحى الظاهرات الاجتماعية ، ولا يمكن أن يبعد تأثيره عن أى باب من أبواب النشاط الانسانى والاجتماعى .

وقد ظهرت نظريات عديدة عن أصل الفن من الوجهة الاجتماعية ومنها ما هو صحيح ومنها ما هو غير ذلك .

ولقد رأينا من قبل أن داروين يشتق الفن من الغريزة الجنسية وهى النظرية التطويرية — ويؤيد داروين وجهة نظره هذه بأن مظاهر الجمال عند النباتات والحيوانات كتفتح الازهار بألوانها الجميلة وكتعدد غناء الطيور وكبنائها العش كل هذه المظاهر وغيرها تبتدىء غزارتها وتنتهى بابتداء وانتهاء فصول التلقيح والاتصال الجنسى هذه النظرية ليست جديدة عند داروين فلقد أشار اليها من قبل أفلاطون بشكل ميتافيزيقى وتحدث عنها بوالو Boileau وميسيه بشكل أدبى ، وعبر عنها «فرويد» بشكل نفس (سيكلوجى) وعلى الرغم من قدم هذه النظرية وحداثتها فى آن واحد الا أنه قد وجه اليها فقد من الوجهة الاجتماعية ، فهى بالنسبة للجماعات المتأخرة لم تكن الغريزة الجنسية هى أصل كل الفنون فهناك لأن الدين عند هذه الأقوام كان يسيطر كثيرا على الحياة الاجتماعية بشتى مظاهرها .

والنظرية الثانية تشتق الفن من اللعب واللهو وهى النظرية التى يقول بها «هربرت سبنسر» كذلك «لاسباكس» : فكانت ترى أن الفن مظهر كمالى ونوع من الترف واللهو والتسلية وهذا يجعل الفن نشاط ارستقراطى لا يبغى المنفعة المادية ، وبهذا الفن للفن لا لشىء سواء وفى هذا تحقير لشأن الفن ، فالفن أرقى من اللعب واللهو ، فما كان يبدو من ألعاب ومسرة عند الشعوب المتأخرة لم تكن الا مظاهر فنية اجتماعية لها وظيفة تؤديها فى المجتمع • فهذه النظرية لا تصلح الا لتفسير الفن عند الهواة فقط ولكنها لا تصلح أن تكون تفسيرا شاملا للفن بوجه عام عند سائر الناس وفى مراتب حضارتهم المختلفة •

أما النظرية التى كانت تشتق الفن من الحرب فهى نظرية « بوجليه » Bouglé الذى كان يعتبر أن الحرب احدى العوامل الفعالة الاجتماعية لظهور الفن — وهى نظرية مقبولة لأنها نظرية اجتماعية[١] •

وأخيرا هناك النظرية التى تشتق الفنون من الدين[٢] وهى أهمها جميعا اذ كان يرى أن للدين أثر كبير على الفنون لا ينحصر على الشعوب المتأخرة فقط وانما يتخاطاها الى سائر المجتمعات التاريخية الحديثة ، والقرون الوسطى أى أن الفن خرج من الدين وتأثر به كثيرا فى تطوره وان كان قد استقل عنه نسبيا فهو بالرغم من ذلك مظهر اجتماعى ، ومن طبيعة المظاهر الاجتماعية أن تؤثر بعضها فى البعض الآخر كما قال دور كايم ولذلك فان الفن مظهرا اجتماعيا فى أصله بحكم انه خرج من الدين ، ومظهرا اجتماعيا أيضا فى تطوره بحكم أن الدين لازمه فى جولته الزمنية •

---

(١) بوجليه «الفن من الوجهة الاجتماعية» كتاب الفن وعلم الاجتماع الجمالى

(٢) دور كايم « الاشكال الاولية للحياة الدينية » سنة ١٩٢٥ .

قال «لانسون» فى كتابه «تاريخ الادب الفرنسى » ان « كل ما تذوقه الشعب من فنون الجمال كان مصدره الدين ••• » •

وقد ظهر أثر الدين واضحا فى الاعمال الفنية فى العهد الحديث فنجد ابداع روفائيل يتمثل فى صوره الدينية « الدين ، العائلة المقدسة ، وتجلى الرب ، والعذراء على الكرسى ••• » كذلك « ليوناردى فيشى » فى العشاء المقدس ، وفى القديسة آن مع العذراء والمسيح•••أما «ميكل انجلو»فيتجلى فى صورة موسى عليه السلام ، «وروبنز» فى صورة نزول الصليب•••وهكذا عند كثير من الفنانين المحدثين حيث نجد الاثر الواضح للدين على شتى الفنون التشكيلية[1] •

ولقد ثبت لنا من خلال هذه النظريات عن اجتماعية الفن فى شتى الميادين أى أن الفن ظاهرة اجتماعية كأى ظاهرة أخرى ، يؤثر فيها ويتأثر بهـــا •

وقد كانت هذه أيضا هى وجهة نظر (شارل لالو) عالم الجمال الفرنسى[2] الذى يرى أن الفن فى واقع الأمر ظاهرة اجتماعية لا تتعلق بما يجب أن يكون فى عقلية الفنان من نزعات ودوافع ومثل وغايات وانما ما يكون فى المجتمع بمعنى أن الفن ظاهرة موجودة فى خارج عقليات الافراد فهى ظاهرة لها تاريخ فى المجتمع ، ولها مستوى حضارى معين ولها مدارس تبنى على أسس فنية خاصة • فالفن ظاهرة جمعية فى أصلها وفى تطورها ــ حتى العبقرية فى الفن ليست فردية وانما جماعية بحيث أن الفرد يكون وسيلة للتعبير عن مثل عليا ترسمها له الجماعة ويكون تجديده صدى لموجات عامة فى المجتمع وبغير هذا لا يكون لانتاجه المبتكر قيمة اجتماعية ولا يلقى نجاحا

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الفلسفة المعاصرة « ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى » سنة ١٩٦٢ .

فى المجتمع ويبقى الانتاج وصاحبه بغير تأييد اجتماعى • ولا يلقى احتراما بين المختصين فى الفنون ولا عنـد غير المختصـين من جمهـور الفنانين وهـواة الفن •

وقد قامت دراسات عديدة للفن من الوجهة الاجتماعية وكيفية اعتباره ظاهرة اجتماعية متصلة بالظواهر الاجتماعيـة الاخـرى ـ فقـد عـرف Baratoro [1] الظاهرة الفنية الحاضرة كما عرفها (سبنسر) بأن الفن مثل اللعب هو نشاط حرفة تقليدى ـ ولكن لا يعتقد أن هذه صفة كافيـة ، فيجب أن نضيف اليها الصفة الخاصة وهو أنه اجتماعى ، ولا ينفصـل عن وجود الجمهور ، وفكرة الجمهور حاضرة دائما فى مخيلة الفنان فليس هناك فن بدون جمهور Pas de public pas d, Art ومن هنا وجبت دراسة الفن عن طريق علم الاجتماع العـام فى روابطه مع الظواهـر الاجتماعية الاخـــرى •

وقد قام Bara toro بتصنيف الظواهر الاجتماعية المختلفة من حيث الأهمية أو التعقيد ، اذ أن كل فئة من الظواهر الاجتماعية لها مـع سابقتها رابطة ثلاثية :

١ ـ عامل السبب الذى تشتق منه عنصريا •

٢ ـ اسـتيفاء الحـاجة •

٣ ـ الهـدف والوسـيلة •

أى ان الظاهرة الأقل أهمية يجب أن تستخدم فى اتمام الأكثر جوهرية بطريقة غير مباشرة وقد حاول المـؤلف أن يقيم هـذه الروابط الفنية مـع

---

(1) Ad. Baratoro : L' annee Saciolagique .

الظواهر المختلفة أى مع الظواهـر الاجتماعية الأخـرى مثل الظواهـر الاقتصادية ، والظواهر التشريعيةـ السياسية والدين ، والاخلاقـ أى أن يخضع الفن لعدد من الحاجات الاجتماعية الهامة عليه Ad. Baratoro أن يقبلها • وهذه الحقائق السوسيولوجية لا تتعارض فى شىء ، فهو يرى أن الفن لا يجب أن يفترض حتى ظاهريا أى غرض خارج عنـه • ومن هنا كان المبدأ الذى يقول أن الفنان يخضع للمؤثرات العامة ويعبر غـريزيا فى أعماله عن الاحساسات أو الافكار التى توحى بها اليه الأحداث المحيطة به، سواء أكانت أحداث اقتصادية أو تشريعية أو أخلاقية مجتمعة ••• الخ •

والأهمية الاجتماعية بهذا المعنى يمكن أن تصبح مقياسا للقيم المطلقة للعمل الفنى ، أو على الاقل للامتداد والأبدية الخاصة بانتشـاره وبمعنى آخر يجب أن تنوب فكرة الاخلاص فى الفن عن فكرة الحقيقة حيث تجتمع الذاتية النزيهة المطلقة والأهمية الاجتماعية الواجبة •

وهناك عدة ملاحظات بارعة فيما يختص بمقاومة الظواهـر المعقـدة للظواهر ـ البسيطة ، ومن الفن للأخلاق على وجه الخصوص : ـ فالخلود فى الفن يمكن أن ينتج عن أزمة أخلاقية ودينية تكملها ، أو عن تعبير مغالى، أو خاص بالعوامل المشروعة والاجتماعية التى لا تغر المجتمع •

أى أن الفن ظاهرة اجتماعية عامة يشترك فيها المجتمع بآرائه وميوله من حيث قبوله للعمل الفنى أو الانصراف عنه ، وهو أيضا ظاهرة عامة بمعنى أن أفراد المجتمع كلهم يتذوقونه أو على الاقل على استعداد لتذوقه ، وهو ظاهرة عامة من حيث أنه ظاهرة جمالية من الممكن أن يدركها الانسان وأن ينفعل بها انفعاله بأية حادثة عيانية مشهودة وهو ظاهرة عامة من حيث تناوله المشاعر الانسانية ـ وهو صورة مشتركة لناس جميعا ، ويتمثلها كل فرد فى

نفسه — وأكبر مثل على عمومية الظاهرة الفنية هى المشاركة الوجدانية بين العمل الفنى سواء كان مسرحية أو صورة أو رواية ، وبين ما نجده فى نفوس المشاهدين والقراء من صدى • بل أن كثيرا ما يرى الفرد انعكاس لشخصيته لما يراه فى مسرحية أو قصة — ومن هنا نقول أن الفن ظاهرة اجتماعية عامة وأن تأثيره يوجد فى كل نفس •

ولقد كان الفن قديما يلعب دورا هاما فى حياة الشعوب فقد كانت المهرجانات الحافلة فى أعياد الآلهة ، وغيرها عند المصريين واليونانيين القدماء ، وما يلقى فيها من أشعار وما يمثل من مسرحيات ، ومن رقصات ، تفيد مواسم فنية وأدبية ذاخرة • وقد نشأ الفن التمثيلى أو الدينى فى قلب المعابد كذلك زخرفة المعابد والكنائس بالفنون الجميلة واللوحات المعبرة ، وقد دعا هذا أرسطو الى توجيه الناس الى أهمية الفنون والآداب وأثرها فى تطوير الاتصالات الانسانية ونراه فى كتاب « فن الشعر » يدعو الى اتخاذ التراجيديات كوسيلة للتطهير من عاطفتى الرهبة والرأفة والحالات الوجدانية المماثلة ، بتمثيلها على المسرح مما يؤدى الى السمو بها والتخلص من ضررها •

فاذا كانت تلك هى عمومية الظاهرة الفنية والأدبية فان الزامها أو جبريتها لا تقل عنها أهمية فالظاهرة الفنية تسيطر على الافراد بشكل لا يستطيعون معه الخروج عليها أو تحديها • ويفسر دور كايم ذلك بقوله[1] •

« أن شعور الفرد ليس هو المنبع الذى تفيض منه الظواهر الاجتماعية

---

(١) دور كايم « قواعد المنهم الاجتماعى » ص ٣٥

أو على حد تعبيره • التيارات الاجتماعية — وانما تأتى هذه الظـواهر فى الخارج — فتتسرب الى شعور كل فرد • وأن فى اسـتطاعتها أن تجـرنا خلفها على الرغم منا » •

ومن هنا كانت موضوعيتها وميزتها من هـذه الناحية على الظاهـرة النفسية التى يدرسها على النفس الفردى • هذه الجبرية والقهرية الخاصة بالظاهرة الاجتماعية لا يشعر بها الفرد بل تسرى فى نفسـه مثل أى شىء باعتماد عليه دون أن يحس بالزامها عليه ، وهو لن يشعر بها الا اذا قاومها أو وقف ضد تيارها ، وحينئذ يشعر بضغط تلك العواطف • التى لا يذكـر وجودها فى صورة العقاب الذى يقـع عليه أو السـخرية التى يلاحظها من أفراد المجتمع •

كذلك نجد أن الظاهرة الفنية كغيرها من الظواهر الاجتماعية تتشكل وتتخذ سماتها المميزة من عقائد وعادات الجماعة برمتها ، فتثبت بالتكرار ، وكما أنها قهرية فى المجتمع فهى قهرية أيضا على الفنان نفسه ، بدليل بسيط هو أن الفنان المصرى لن يستطيع التعبير عن البيئة الأوربية مثلا ، لأنه ليس عضوا فى المجتمع الأوربى ، وليس معتادا عاداته وتقاليده • ومن هنا كانت أفكار الفنان وآرائه منتمية بطبيعتها « الى الجمـاعة التى يعيش فيهـا » ونابعة بطبيعتها « من البيئة التى يتشكل بها » • وذلك فان الفنان أو الأديب يتمثل نظمها ويتبعها ولا يعبر عنها لأنه سيجد منهم الانصراف عن فنه ، فى حالة اجماعهم على رأى ، أو لقد وهم نظاما معينا ، وقد يبلغ حـد المحاكمة وتوقيع العقوبات المادية أو المعنوية •

ولكننا نجد صدى لبعض الاعمال الفنية والادبية فى البلاد الاخـرى وذلك لأن هناك ظواهـر بشرية مشـتركة بين الجنس البشرى كله مثـل

الاحساسات والعواطف كعاطفة الحب ، وعاطفة الشفقة أو الخوف أو الغيرة أو غيرها • وانتشار الظاهرة الفنية فى المجتمع الانسانى عامة يخدمها فى الواقع ولا يعزيها • اذ أن الفن للحياة وللمجتمع •

كذلك فالظاهرة الفنية لها صفة تاريخية لأننا نرثها عن الأجيال السابقة ولأن جذورها تتبع من تاريخ هذه الأجيال • فهى تراث اجتماعى وتاريخى فى وقت واحد وتاريخ الفنون عامة هو جزء من الدراسة التاريخية لأنه يمثل جزء هام من تاريخ الامة وتشتمل على آثار قيمة تصور لنا العادات والتقاليد الخاصة بهذه الأمة وترسم صورة صادقة عن أذواق أهلها وعن النظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى هذا المجتمع • فالتراث الفنى للأمة ذو أهمية خاصة اذ به لتفهم نظمها وحياتها ومدى التقدم الثقافى والفنى الذى كان بها • فلولا الأعمال الفنية والأدبية اليونانية لما عرفنا من تاريخ بلاد اليونان الفكرى والاجتماعى شيئا لأنها تصور المجتمع اليونانى بصورة عامة[1] •

وقد قامت دراسة للأشكال الأدبية فى الفكر اليونانى كعمل جماعى ، تجمع فيه الاعمال الادبية فى طبقات ، حيث توجد نماذج أدبية متجمعة يمكن أن تكون موضوع لدراسة سوسيولوجية • والنقطة الهامة فى هذه الدراسة هى ملاحظة النواحى التى تبدو فيها الاشكال الادبية ظواهر اجتماعية • فقد أضيف كل تقدم فنى وأدبى الى الأعمال الغريزية الفردية وعندما تتكرر بعض الأعمال الفنية فى كثير من الفروض ، وتكون فى الواقع أشكال ونماذج للفكر الجماعى تكونت نتيجة الأفكار الواضحة والغامضة التى نشعر بها شيئا فشيئا خلال هذا التكرار •

---

(١) محمد صقر خفاجه : تاريخ الادب اليونانى ص ١٢٨ •

فهناك ارتباط بين المجتمع والأدب الذى يمارسه ، أى أن هناك قوانين للفكر الجماعى تظهر فى آن واحد فى التعبير الشفهى وفى التصورات الظاهرة •

وهاتان ظاهرتان مرئيتان وهما : — مقاومة الاشكال ، والظهور السريع للنظم المعقدة •

واذا مررنا فى الانساق الجمانى للتصورات الى ارتباطها المنطقى فاننا ننساق الى نفس النهاية • فمن ناحية نجد أن الانفصال التحليلى للفكرة يجب أن يرفع لدرجة من الصعوبة يمر بها العقل الفردى ، ومن ناحية أخرى فان التأثير التركيبى للصور يفرض بقدرة فعالة وثابتة — تلك حالة من الواقعية تنقص التفكير الخاص بالافراد المعزولين ، وعلى هذا النحو من الدراسة السوسيولوجية للأدب فانه سيلحق بدراسة علم الأساطير •
Mythologie

وهذا يضع أمامنا سؤال هام : — وهو الى أى حد يمكن القول بأن الكاتب أو المؤلف يكون وسيلة التفكير الجماعى ويدرك فى الهامه التصورات القائمة التى تحوم فى الجماعة ؟

فلقد بدى لنا أن هناك جو عائلى بين كتاب العصر الواحد مثل أفلاطون وأرسطو فانهم اقتسموا دون شك الجزء الأكبر من الاحساسات والمزاعم الخاصة بالمجتمع الذى كانوا جزءا منه — وقد صوروا ما كان تحت أعينهم ويجب ألا نغفل الرابطة بين العمل الفنى والبيئة — كذلك دور التربية فبدون التربية التى تفرض على جماعة من الأفراد الأشكال الفكرية والخيالات المحدودة عن طريق الادب فان الاعمال الادبية بسبب النقص فى التعبير من

الفكر الجماعى تقوم بوظيفة تفيد مشابه مثـل المطربين ومثـل المسرحيات عندما تكون جزء من طقوس أحد الاعياد ، ومثل الاحاديث فان الادب أحيانا وبالمعنى الرواج للكلمة يكون نظام أو قانون — وتقدم لنا فادر Phèdre عهدا بأكمله فى الادب اليونانى[١] .

كذلك كان للتراث الادبى والفنى فى الدول العربية ، الذى يمثل شتى المظاهر الاجتماعية أثر كبير فى معرفة الكثير عن تاريخ العرب قبل الاسلام وأن مكة مثلا كانت مركزا تجاريا وأدبيا . تتناقـل فيهـا الفنون والآداب الاجتماعية . التى تناولت الحياة العامة العادية وحياة البدوى الخاصـة . وأن كثيرا من العادات مثل وأر البنات والوثنية قد بطلت بعد الاسلام . أى لولا ما تركه لنا التاريخ الفنى والفكرى الاجتماعى من تسجيل هـذه المآثر لمـا عرفنا شيئا عن تطور الفن والأدب العربى[٢] .

نفس الحال بالنسبة للفن والأدب الفرنسى على وجـه خاص ، كذلك الأدب الانجليزى والروسى . فان التراث الفنى من آداب وفنون متمثلة فى المتاحف والمعابد والقصور وشتى الفنون التشكيلية التى تمثل عهـودا فنيه تصور الحياة الاجتماعية التى كانت موجودة من قبل فى كل من هـذه البلاد بالفن الذى يتأثر بالبيئة الاجتماعية وبالوضـع السـياسى والاقتصـادى والدينى لم نكن لنعرف عنه شيئا لولا ما بقى من التراث الذى صور لنا مثلا الحياة فى فرنسا قبل الثورة وكيف أن الفنون والآداب كانت تخاطب طبقة معينة ثم بعد الثورة وكيف أصبح لها هدف آخر وجمهور آخر تخاطبه وقد

---

(١) المرجـع السـابق .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريـخ الاسـلام السياسى والدينى والثقـافى والاجتماعى الجزء الاول سنة ١٩٥٣ ص ٦٦ .

كان الأدب الفرنسى أغنى تلك الفنون بهذه الصورة التاريخية التى رسمت لنا عصر ما قبل الثورة وما بعـدها • فأعمـال روسـو وبلزاك Balzac وأميل زولا Emile Zola وجى دى موباسـان G. de Maupassant فى فرنسا ، وأعمال شكسبير وبن جونسون ، ريكنز فى انجلـترا ، وأعمال تشيكوف ودستوفسكى وتولستوى فى روسيا وغيرهم كثير تمثـل جانبـا فكريا خطيرا ومرحلة تطورية تاريخية فى أدب كل مجتمع • بما سـادها من قيم جليله وثقافية واجتماعية عامة • حتى يعـد كل فـن وكل أدب مـرآة لعصره وبيئته •

فالفن يتأثر بالمسائل السياسية والاقتصادية والخلقية وسـائر الظواهـر الاجتماعية الاخرى وتتحدد قيمته بمدى ملاءمته لظروف الحياة •

ويمكن القول بأن ما ظهر من فنون وآداب فى عصر من العصور وما بقى لنا منها ، ومدى تقبل المجتمع لها يمثل هذا العصر أصدق تمثيل •

ولننظر مثلا الى الكلاسيكية وقواعدها الصارمة وما كان عليه التجمع فى هذا العصر حيث ساد نظام الاقطاع وانقسم المجتمع الى سادة وعبيد ، وكيف أن الفن والأدب يخاطب السادة ويصور حياتهم وبيئتهم ويدعو الى تقليد القديم ، ولكن الشعب والعبيد ليس لهم فنون خاصة ولم يكن لهم حق التعبير عن أنفسهم •

كذلك الرومانتيكية التى جاءت عقب الثـورات على الاقطاع ومطالب الشعب بالحرية والمساواة وشعور الكتاب والفنانين بحرية فى التعبير عما فى أنفسهم ، ونجد أن الفن والأدب هنا يختلف عن الفن والأدب الكلاسيكى شـكلا ومضمونا •

كذلك الواقعية من عصر العلوم والنظرة الى الواقع الاجتماعى تختلف كل الاختلاف عن الكلاسيكية والرومانتيكية اتجاها وفكرا وأسلوبا«وسنتكلم عن ذلك بايضاح فى الباب الأخير » •

أى أن هناك علاقة وثيقة بين الفن والأدب والبيئة والعصر مما يؤكد أن الفن ظاهرة تاريخية أو بمعنى أشمل ظاهرة حضارية •

والفن ظاهرة اجتماعية تسير مـــع التطور الاجتماعى والتاريخى وله نظام خاص كأية ظاهرة اجتماعية أخرى من حيث أن أى نظام اجتماعى هو الظاهرة الاجتماعية من ناحية التشريع الذى يحددها ، وله دستوره وميثاقه وهدفه أو الغاية التى يستهدفها • فالفن على هـــذا يعتـــبر نظام اجتماعى ومؤسسة مجلس رعاية الفنون والآداب عندنا وما يماثلهفى الدول الأخرى• دستوره وميثاقه نشر الاعمال الفنية والادبيـــة وتشـــجيعها والعمـــل على تطويرها • وتخليد التراث الاجتماعى[1] •

وبما أن الفن ظاهرة اجتماعية أى نظام اجتماعى فهناك صلة بينه وبين الظواهر الطبيعية مثل البيئة المناخية وأثرها على الانتـــاج الفنى والادبى بما أن الفنان نتاج بيئته وتؤثر فى حياته المادية والمعنوية • كما تؤثر فى حياة المجتمع وينطبق هذا على الفن الاسلامى فى الجزيرة العـــربية حيث نجـــد وصفا للصحراء والسراب والابل أكثر من أى مظاهر أخرى ثم أصبح لكل اقليم اسلامى طابع يختلف عن الآخر متأثرا ببيئته الجغرافية مثل العراق والشام والاندلس ــ ونفس الوضـــع بالنسبة للفنون والآداب اليونانيـــة نشأت فى بلاد اليونان الآسيوية وفى جزر بحرايجه فتأثر بطابعها ثم انتقلت

---

(١) « الادب والمجتمع » محمد كمال الدين يوسف ١٩٦٤ •

الى بلاد اليونن الاوربية • فتأثرت بأقاليمها ثم بعـد فتح الشرق على يد اسكندر الاكبر تأثرت بالأقاليم المختلفة •

وقد كان المفكر الفـرنسى تين Taine يرى أن الفن يتأثر بثـلاث مؤثرات • الجنس والبيئة والعصر • وذلك بحسب فلسـفته الجـبرية والميكانيكية ، وهو يرى أن الفنان خاضـع لظـروف البيئة الخاصـة به ، وجنسه ، وخصائص عمره ، ويؤيده فى ذلك الناقد الروسى تشير نشفسكى، ويزيد عليه اذ يرى أن الفنان يتأثر بظروفه وأوضـاع عصره ويؤثر فى كلّ منهما فى الوقت نفسه ــ ولكن الناقد الفرنسى سانت بيف Sainte Beuve يرى أن الاديب الفنان لا يتأثر بالبيئة واتجاهات العصر ، وانما هـو الذى يؤثر فيها بما لديه من امكانيات فنية واستعدادات فطرية • وهذا معناه أنه يلغى كليه أثر البيئة ، والعصر • وأثرهما كما نرى قويا مثلما رأينا فى أمثلة الأدب والفن العربى واليونانى •

ولكن من جانب آخر فان تشير نشفسكى يرى كذلك ان الفنان والأديب نفسه يؤثر فى الموضوع الذى يتناوله ويصوغه بطريقته الخاصة ولكن هذا لا يصل الى حد تأثير البيئة والعصر فى الفنان والأديب •

وهناك صلات أخرى بين الفن والظواهر الاجتماعية الاخـرى تؤكد مدى تأثير البيئة والعصر • فالدين مثلا وهو أساس حياة الشعوب النفسية ويؤثر فيها ماديا ومعنويا كما رأينا من قبل •

ونظرة واحدة الى الآثار الفنية التى تأثرت بالدين كالمعابد والمساجد والكنائس والصور التماثيل تؤكد أن تأثـير الدين فى الحياة الفنية قـوى وعميق • وهناك فنون ظهرت بأثر الدين مثل الأدب التمثيلى الذى تطـور حتى أصبح فنا مستقلا •

والأدب الصوفى الذى ما زال قائما كأحد الفنون الأدبية فى الشعر والنثر نجده كذلك متأثرا بالدين وذلك فى شعر الزهد والخطب الدينية وغيرها — والفنان الذى يتناول موضوعا دينيا يقدمه بطريقة محاطه بالاجلال والاحترام الخليق بالدين ومنزلته فى المجتمع •

وبما أن السياسة هى الأخرى تقيد نشاط اجتماعى وتؤثر فى مختلف النواحى الاجتماعية فهى تؤثر أيضا فى الفنون والآداب ضمنا • والوضع السياسى القائم أى نظام الحكم وشكله • ومدى الحرية الاجتماعية والفكرية • وعلاقة الأفراد بالحكام تطبع التيارات الاجتماعية بطابعها • فنجد أن نظام الحكم الاستبدادى يخلق ألوان من الفنون يغلب عليها طابع الضعف والتملق للحكام • بعكس الفنون التى تظهر فى نظام الحكم الحر فيبدو عليها الصراحة والاستقلال فى الرأى وظهور شخصية الفنان وحريته وخاصة فى الموضوعات التى يطرقها من تصوير وفن تمثيلى ونحت ورواية وقصة ••• الخ •

وقد كانت مصر مثالا لهذا الوضع قبل سنة ١٩٥٢ وبعد الثورة بالنسبة للفنون والآداب عامة وبدأ من ازدهار ما بعد الثورة ما يثبت هذه النظرية فى حرية الفنان والأديب •

كذلك نجد أن الفنون والآداب التى ظهرت فى عصر الازدهار الآتية (٤٩٩ — ٣٩٩ق) نتجت عنها روائع فنية وأدبية أيام بريكليس ، بعكس ما حدث أيام حكم كليون وكان مستبدا مما كان له أثر خطير على الفن والأدب ، ويبدو هذا واضحا فى كوميديات أريستوفان •

ونفس الوضع كان فى أسبانيا أيام الاضطهاد فى العصور الوسطى — كذلك فى الدولة العباسية الإسلامية عندما اشتد بطش الخلفاء •

وفى ايطاليا عندما قضت الحركة الفاشية على الحـــريات الاجتماعية وفى ألمـــانيا كـــذلك ومن ثم عاقت الحـــرية الفـــن والأدب عن أن يعـــبرا عن الواقـــــع •

اذا كان موسوليني يمنح أى رأى يخالفه ولهذا سخر الفنون والآداب للدعاية مما عرض نزاهة الفنان واخلاصه للخطر الشـــديد • ولهذا لوحـــظ تأثر الفنون وفى ذلك العصر فى ايطاليا وألمانيا •

أى أن الفن حين يتأثر بالأوضاع السياسية فى مجتمعه انما يعبر عن الروح التى سادت هذا المجتمع فى عهد من عهود التاريخ •

كذلك فان النظم التربوية والقضائية والاقتصادية والعادات والتقاليد وغيرها فى أى مجتمـــع لها أثرها العميـــق فى الفنـــون والآداب الخاصـــة بهـــذا المجتمـــع •

فنجد أن الفنان يراعيها ولا يحيد عنها • اذ أنه نشأ وتربى فى هـــذا المجتمع فنراه يسير وفقا لها وتنعكس فى كتاباته وأعماله الفنية •

من المؤثرات الأخرى على الفنان الحضارة السائدة التى تتطـــور بها الأمم وتلك الحضارات التى تصل الشعوب بعضها ببعـــض يحملها على أن تتأثر كل منها بانتاج الأخرى •

والفنون والآداب الاسلامية أكبر مثل على ذلك فبعد اتصـــال العرب بالشعوب الاجنبية نجد أن الطابع الفنى والأدبى فيها قد تغـــير تبعا لذلك وظهرت أفكار واتجاهات جديدة فى الشعر والنثر العـــربى كوصـــف الثلج ومجالس الخمر وقصائد الحب الصوفى والفلسفى وذلك نتيجة للاتصـــال بأجواء اجتماعية أخرى وآداب وفنون أخـــرى ونجـــد أن اتصال الأمـــة

اليونانية بالشرق خلق تطور كبير فى آدابها وفنـــونها التى استمـــدتها من الأمم الأجنبية ثم طبعتها بطابعها الخاص وهذا ما يسمى بالتكيف الثقافى أى اتصال ثقافة بأخرى وتأثرها ببعض اتجـــاهاتها تبعا لظـــروف وعـــوامل اجتماعية • وعمـــوما فان الفن الاســـلامى كان خليط من الفن الفـــارسى واليونانى والآشورى والأسبانى أى من كل البلاد التى اتصلت بها الدولة الاسلامية فكانت فنونها خليط بين الفن الغربى والشرقى •

وهكذا نرى أن الفن يتدخل فى جميع أوجه النشاط الانسانى الأخرى ففى كل ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى يتدخل الفن لكى يعطى مسحة جمالية ولمسة فنية أخيرة لأى أثر من آثار النشاط الانســـانى ولكذلك فان الفن فى المجتمع كما قال ريدهو « همزة الوصل بين الناس فى المجتمـــع » •

أى أن الفن ظاهرة اجتماعيـــة من الطراز الأول له تأثـــيره فى المجتمع وتأثيره فى بقية الظواهر الأخرى ، وتأثيره فيها ســـواء أكانت طبيعة ـــ أم انسانية فهو روح عصره ومرآة بيئته • فقد تبين لنا الدور الذى يقـــوم به لمعرفة حياة الأمم وتاريخها والصورة الفكرية والفنية التى كانت عليها وذلك عن طريق الآثار الفنية والأدبية •

وكما قال لانســـون Lancon « أن الأدب يكمل صـــورة الهيئـــة الاجتماعية اذ يعبر عن كل ما يسودها من مظاهر وتيارات ونظم » •